

# رحلتنا

## في المرأة

أسفر صبح الجمعة في السابع والعشرين من يناير ، وقد احتل أعضاء الرحلة ميدان الأوبرا ، وعسكروا في منطقة تتوسط الميدان - كانت العربات المعدة لهم قد شغلتها قبيل مطلع النهار ، ثم أشرفوا على جنبات الميدان يملأ المرح نفوسهم ، وينساب النشاط في أعصابهم ، ويشير انتباههم مرأى رئيس الرحلة الأستاذ شفيق بك غربال ، وهو يقبل سريعا ويدبر خفيفا ، بأسيم الثغر في سرواله القصير ونشاطه الموفور .

وترقب الجميع مقدم العميد - الدكتور طه بك - إلى ساحة الأوبرا ليودع أبناءه قبل الرحيل ، فلما أقبل عليهم خفوا لاستقباله ، وسارعوا للحفاوة به ، شاكرين له هذا الفيض المألوف من عطفه وحنانه ..

وانطلقت في طريق السويس خمس عشرة سيارة صغيرة ، وعربتان كبيرتان تحملان طعام الأعضاء وشرابهم وخيامهم وسائر ما يحتاجون إبان أيام الرحلة العشرة ، ومع الطعام والشراب أربعة من الخدم والطهاة ... نعم قد صاحب الرحلة طاهيان على الرغم من اقتراح ظريف ، عرضه أستاذنا الدكتور طه في اجتماع عقده الأعضاء قبل قيام الرحلة بيوم ليزودهم بنصائحه وإرشاداته ، إذ قال حين عرض ذكر الطهاة : ولماذا الطهاة .. ؟ الرأى عندي أن يقوم الطالبات بأعداد الطعام ، وأن يؤدي الطلبة عمل « المرطونات » - النُدل - فقال لعزته أحد الطلبة : ومن يتولى أكل الطعام .. ؟ قال : يتولاه الأساتذة ... 1 وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه بارحنا السويس ، واتجهت بنا السيارات في طريق صحراوي ممتع ، ثم انطلقت إلى الجنوب محاذية في مسيرها شاطئ البحر الأحمر ، وتأهبت « فرقة التفاريح » في عرباتها لأعداد

الأناشيد والأغاني التي يصفون فيها أول يوم من أيام الرحلة — فيتناولون  
بالفكاهة الحلوة والنكتة اللاذعة ما يشاهد الأعضاء من مناظر ، وما يقع لهم  
من أحداث ، وما يلتفت النظر فيهم من تصرفات ...

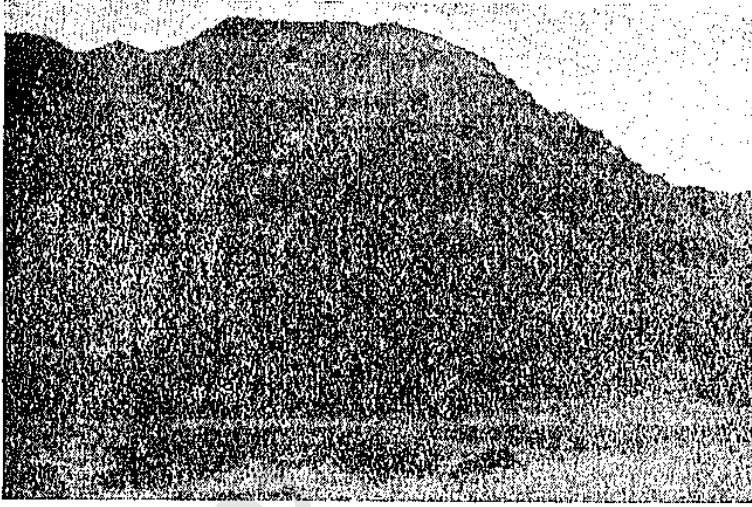


الأستاذ شفيق غربال

ومر الركب في طريقه بالعيون الساخنة ، وعلى كئيب منها والسيارات  
منطلقة في طريقها تنهب أرض الصحراء حيناً وتترفق بها أحياناً ، قد سحط  
الليل رحاله ، ونشر على الصحراء الرحب جناحه ، فنزل الركب في منطقة  
تقع بين الجبل وساحل البحر وعسكر فيها الأعضاء ...

وقد صاق أحد أصدقائنا بهذا الليل الذي اضطرنا مقدمه إلى أن نمر  
بالعيون الساخنة دون أن نقف عندها ونطيل الوقوف لكي نسرح الطرف في  
جمالها الفتان ، ولكن الدكتور نصحي قد خفف عن الصديق ألمه ، وكشف  
له عن حقيقة هذه العيون فإذا هي عيون عادية إلى أقصى الحدود ، لا يلتف

حولها الرمش الطويل ، ولا يعلوها الحاجب الجميل ، ولا يزينها الكحل  
البديع ، وليس في طرفها حورٌ قتال ولا سحر فتان ، ولا شيء قط مما ظنه  
الشعراء جميعا - قدماء ومحدثون ١٠٠



جبال الفلاة الشمالية قرب العيون الساخنة ، حيث قضى أعضاء الرحلة الليلة الأولى  
أقام الاعضاء خيامهم في المنطقة التي أسلفنا الإشارة إليها منذ حين ،  
وانطلقوا يتجولون على شاطئ البحر ويسرحون الطرف في رحاب هذه  
هذه الطبيعة التي استطاعت أن تفتن بجمالها الشعراء في شتى العصور ، ولكنها  
—والحق يقال — قد عجزت عن أن تفتن أعضاء الرحلة حتى تنسيهم الجوع  
الذي كانوا يحسون به ١٠٠ أجل فقد قيل لأعضاء الرحلة هاتوا طعام ظهر اليوم  
الأول معكم فلن تذوقوا طعام الرحلة إلا في المساء — والحكمة في هذا عليها  
عند الله وعند الأستاذ شفيق بك — وظن أن العشاء سيكون « عندما يأتي  
المساء » .. ولكن المساء قد أتى وأطال المقام بيننا حتى ضيقنا به وضائق بنا...  
ولا عشاء هناك ... وفرقة التفاريح تطلق حناجرها بين الحين والحين بهذه  
الأغنية التي لا يُعرف لها وزن وإن كان فيها بعض التعبير عما يحسون :  
« احنا جعنا . عاوزين ناكل . ياطباخين فين العشا . الأكل طاب واستوى  
وليه ماجاش العشا ... » .

وأخيراً سرى بين خيام المعسكر نبا العشاء . واهتزت الخيام من فرط الرضا والاطمئنان ، ولكن الأعضاء تبينوا بعد قليل أن هذا النبا إشاعة ... وكان الأستاذ زكى على « معاون الاعاشة » كلها استفسر منه الأعضاء عن العشاء أخذ « يغذيمهم » بالاطمئنان ويزودهم بالصبر ، ويؤكد لهم أن العشاء آت لا ريب فيه ... وقد رأى ثلاثة منا يلزمهم الصمت ويحويهم الهدوء ، فأخفى مظهرهم ما تنطوى عليه نفوسهم من سغب وضيق فسرّ شأهم بقليل من الخس الذى بقى بعد إعداد « السلطة » عساهم ينتشرون بين الأعضاء ، ويؤكدون لهم اقتراب موعد العشاء . ورغم أن هؤلاء الثلاثة قد قبلوا الرشوة شاكرين وانصرفوا عنه راضين ، إلا أنهم لم يؤكدوا لزملائهم اقتراب العشاء لأنهم كانوا فيما يظفر لا يحسنون الترويج للاشاعات .

واشتد الطوى بأهل الوقار من أعضاء الرحلة ، فالتدبوا عن خيمتهم صديقنا محمد محمد توفيق ليتصل بالطهارة وينشد لهم بعض أناشيده الفياضة بالحماس ( من نوع : طعامنا الثريد — إنه غداؤنا الوحيد ... الجسم سميرى ... الرأس عبقرى ... ) إلى غير ذلك مما يبعث النشاط فى الطهارة ويحملهم على الاسراع فى الفراغ من إعداد الطعام فى وقت قصير ؛ ومضى صديقنا ثم لم يلبث أن عاد إلينا وأنبأنا بسر عودته السريعة وبهفته الواضحة ، فقال إنه ذهب إلى الطهارة وتمياً لانشاد نشيد حماسى رائع — ومن عادته إذا هم بالانشاد أن يبدأ بهز ذراعه اليمنى من الرسغ إلى الكتف هزاً عنيفاً ، ويحرك جسمه السميرى ورأسه العبقرى حركة عنيقة ولكنها منتظمة ، ثم يفتح فاه ويشعر فى إنشاد النشيد .. والظاهر أن صديقنا قد قام بهذه التمهيدات كلها على كسب من الطهارة ، ثم همّ بالانشاد النشيد وإعلانهم فى شئ كثير من القسوة والمرارة بأن طعامنا الثريد لأنه غداؤنا الوحيد ، ولكنه لاحظ أن الآنسات قد أحاطن بنضد وأخذن فى المساهمة بجد ونشاط فى إعداد الطعام ، فأوقف تحريك الجسم السميرى ، وأرسل إليهن نظرة العبقرى ، ثم عاد إلينا .

وقصّ علينا ما شهد ، ثم سكت قليلا وسرح به الفكر طويلا ثم قال : والله يا أصحابي إن منظرهن مقبلات على إعداد الطعام لأمّتع وأجمل ألف مرة من منظرهن مكبات على قراءة الكتب ..

وبعد أن يؤس الأعضاء من مجيء العشاء ، وتحول اليأس في نفوسهم إلى اطمئنان ، واستحال القلق إلى برد واستسلام ، أشيع في منتصف العاشرة مساء بأن العشاء سيوزع على الخيام ، وذهب مندوبو الخيام ثم عادوا وفي يد كل منهم صحيفة مملوءة حساء ، ولكن الغريب حقا أن أعضاء الرحلة بعد هذا الجوع كله قد قدموا هذا الحساء إلى رمال الصحراء .. قدموه إلى الرمال شرابا هنيئا بعد أن ذاقوه وعرفوا أنه مصنوع من ماء البحر المالح الأجاج .. اطمأنوا على طعمه قبل تقديمه فما كان ينبغي أن يجودوا على الرمال بشيء مشكوك المذاق .. والظاهر أن الأعضاء قد اكتفوا بهذا مظهراً لسكرمهم مع المنطقة التي اعتزموا المبيت بها ، واتهموا بعد هذا كل ما قدم إليهم من ألوان الطعام . وشغل الطعام أعضاء الرحلة ولهاهم عن جمال الطبيعة وصرفهم عن كل شيء سوى طالب واحد ، عرفناه منذ هذا المساء نشيطا مهذبا كأحسن ما يكون الشباب النشيط المهذب ، أخذ يمر بالخيام مستفسرا عما يحتاج إليه الأعضاء من خبز أو شواء — ذلك هو محمد بن السعمران أحد طلبة كلية الآداب بالاسكندرية .

ولما انتهى العشاء انطلق الأعضاء إلى البحر حاملين الأطباق التي تناولوا فيها العشاء ليزيلوا عنها ماعلق بها من أدم الطعام ، ولكن مياه البحر لا تذيب الصابون ، ورمال الصحراء لا تجدى قليلا ، وكلما أسرفنا في العناية بغسل هذه الأطباق عرفنا أن جهودنا في ذلك تضيع هباء منثورا ؛ حقا لقد كانت عملية الغسل أشق ما مر بنا من متاعب ، لم يزعجنا الجوع ، ولم يخفنا البرد ، ولم يقلقنا ضلال الطريق ، ولم يرهبنا نوم العربات يقدر ما كان يزعجنا غسل الأطباق .. وقد اقترح صديقنا الدكتور حسن عثمان أن نلقينا خارج الخيام

فإذا أصبح الصباح جفّ ما بها وزايلتها للزوجة وثابت إليها النظافة ، وأيد الاقتراح « وكيل ابن حنبل » — صديقنا رزقانه — وكان معنا في الخيمة ، قائلاً : إن الشيء النجس إذا جف أصبح طاهراً ، وبالقياس المباح عند الفقهاء نقول إن الشيء القذر إذا جف أصبح نظيفاً والله أعلم ... وسلمنا بفتواه ، ولم تزعجنا هذه القذارة بقدر ما كنا نخشى انكشاف أمرها أمام سائر الأعضاء ...

وعدنا من غسل الأطباق فإذا فرقة التفاريح قد أشعلت النار في وسط المعسكر وسارع الجميع إلى مجلس النار ، ووزعت الحلوى في بداية المجلس ، ثم بدأت الفرقة تغنى وتنشد وقد ألتحمها الطعام فاعتراها الركود ودب إليها النعاس ؛ وقد حاول الدكتور نصحي أن يدفع الحاضرين إلى المساهمة معها فلم يوفق كثيراً ولا قليلاً ، فضاق بهم وعجب لأمرهم لأنهم آثروا الاشتراك في رحلة البحر الأحمر وكانوا خليقين حقاً برحلة سيوه ... !!

وعلى هذا فقد عدنا إلى الخيام وقد كاد الليل أن ينتصف ، ونوينا أن ننام — والاعمال بالنيات كما يقولون . كان في خيمتنا ثمانية أطلقت عليهم « فرقة التفاريح » فيما بعد « شلة الوقار » ويشهد الله أن الوقار قد زايلهم في هذا المساء فما كفوا عن الضحك ولا انقطعوا عن المرح حتى آذن الليل بالمغيب . وكان الاستاذ توفيق اسكندر قد بكر في المنام فلما عادوا إلى الخيمة كانت اليقظة قد ثابت إليه ، فحملهم على السهر معه حتى أقضوا مضجع الخيام المقامة على كشب منهم وفيها خيمة الرئيس — فزارهم وألمّ بهم كما يلم الطيف في حلم جميل ، وسألهم في لطف بالغ عما أسلفوا من نكات ليساهم معهم في الابتهاج والضحك .

وخذتنا سنة متقطعة من النوم ، فما كان من الميسور لأحد منا أن ينام نوماً متصلاً وأصحابه إلى جواره لا يجدون وسادة يريحون إليها رؤوسهم ،

فينطلق شيخيرهم داوياً في الخيمة يرج كيائها ويزلزل الارض التي يستقرون على أديمها . واستيقظنا على فرقة التفاريح تغنى داخل خيمتها - أو هكذا خيل إلينا ، فما كنا نسمع غناء بل تهريجاً متصلاً وصياحاً مستمراً لا يحمل بعضه معنى مفهوماً . وكان أوضح ما سمعناه : « آه يا عاشور إن شالله تموت وتخر الدم . آه . . . » ولا تكاد تسمع آه هذه حتى تسمع فريقاً آخر منهم يقول : « لالا لالا . . . إذا الشمس طلعت واحنا في السرير . تصحينا ماما خشية التأخير ، ونغسل وجوهنا ونسرح شعورنا ونلبس هدومنا وناخذ الفطور لالا لالا . لالا لالا . . . »

وبارحنا خيامنا وطلعنا على الشمس يملأنا النشاط وتنساب اليقظة في أعصابنا وتتمشى الحياة في نفوسنا . وكأن اللحظة القصيرة التي أغفت فيها عيوننا قد ردت إلينا كل ما كان يعوزنا من راحة ونشاط .

وانطلق الاعضاء في هذا الصباح الباكر إلى الخوان الممدود والتفوا حوله وقوفاً ليتناولوا طعام « الفطور » وفي يد كل منهم طبقان وملعقة وسكين و « شوكة » وسرعان ما فرقوا بالمدى شمل الخوان وواروا البطون ما علاه من الجبن والزيتون والخواوى والبيض وما إليه ، وتركوه نضداً ممتداً يشهد

بظلم الانسان لما صنع أخوه  
الانسان . . . . . ومن الانصاف  
أن نعترف بأن الامام الذى  
كان لا يشق له غبار فى هذا  
الميسدان هو صديقنا عزت  
عبد الكريم .



شاطئ البحر الأحمر  
بالقرب من منطقة العيون الساخنة

وفى الثامنة من صباح  
السبت ( ٢٨ يناير ) هم الركب  
بعواصرة المسير ولكن رئيس

الرحلة أو قفه وأعلن للأعضاء استيائه ، وما كدنا ندهش لهذا الاستيائه حتى أعلن الرئيس بأن هذا المكان الذى عسكرنا فيه وإن كان قفرا صحراويا قلما يمر به مار إلا أنه كان جميلا عند ما نزلنا به ، وقد عكرنا صفاه وشوهنا جماله بما خلفنا فيه من فضلات الطعام وقشر البرتقال وبقايا الخس وغيره... وما هكذا ينبغى أن يفعل الجامعيون... وأحاط الأعضاء بالمنطقة صفوفا ثم أخذوا يجمعون هذه الفضلات بانتظام وحفروا لها فى باطن الأرض وأشعلوا النار فيما يقبل الاشتعال منها ، ثم واروا بقيتها التراب...

ومضى الركب فى طريقه حتى بلغ فنار أبى الدرج فى منتصف الثانية عشرة ظهرا ، واستقر بنا المقام عنده نحو ساعة زرناء فيها وتناولنا طعام الظهر الذى وزع علينا فكان «سردينا» وجبنا وزيتونا وتونه... ثم انطلقت بنا السيارات الى فنار الزعفرانة ، ولكن الطريق كانت رملية ، فما كانت السيارات تمضى بضع خطوات حتى تغوص فى الرمال ولا تستطيع حراكا ، ولا يكاد ركبها يترجلون لانقاذها حتى يسمعون ضحكات زملائهم فى عربة أخرى قد لصقت بالأرض واستعصى عليها المسير... وهكذا حتى كانت العربات فى بعض المناطق تكاد تغوص فى الرمال جملة.. وكان سائق سيارتنا أمهر السواقين وأحبهم إلى مواضع الزلل... ذلك هو «الأسطى أمين» — كان معنا منذ عامين فى رحلة فلسطين وشرق الأردن فكان مثار الضحك من أعضاء الرحلة وموضع العناية من «فرقة التفاريح» وقد أوصوا بجميعه فى رحلة البحر الأحمر ليسكون من مسليات الرحلة وبواعث الهجة فيها... وكان من حظنا أن نكون فى عربته... كان ينظر إلى الطريق عن بُعد فيعرف — بفطنته — الاتجاه الرخو كما يعرف الطريق المأمون ، فيمضى إلى الأول وكأنه يعتمد المسير فى الطريق الرملى الكفيل باليقاف عربته وتعطيها عن المسير...

وبلغنا فنار الزعفرانة بعد أن تقدم الليل وعزت مواصلة المسير ، وخلفنا وراءنا العربتين الكبيرتين غائضتين فى الرمال بما تحملان من خيام وطعام



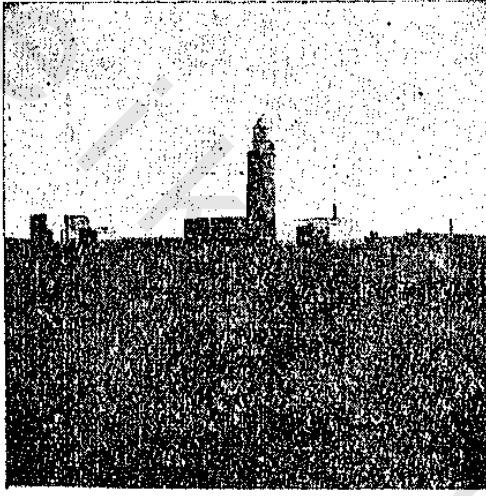
وشراب ، فاتخذنا عرباتنا سريراً للنوم فيها ونحن جالوس بملابس النهار ،  
وأحكامنا اغلاقها اتقاء للبرد ، ونسينا طعام العشاء حتى لم يَجْرَ ذكره على لسان ؛  
وما فائدة الحديث في شأن الطعام والبحر أماننا والصحراء من ورائنا ؟  
والواقع أن الرحلة قد حفلت بالمتاعب ، ولكن روحها الخفيفة قد أضعفت  
أحاساس الأعضاء بمتاعبها ، بل استبدلت بمتاعبها بهجة ولذة وممتعة ، فقد يبدو  
للقارئ أن نوم الانسان — المترف إلى حد ما — في عربة جالسا بملابسه  
المألوفة شيء متعب ثقيل ، ولعله يدهش إذا عرف أن أحدا من أعضاء الرحلة  
لم يبد لهذا استياء ولا تبرا ، إن متاعب الرحلة كانت تتحول على السنة  
الأعضاء نكاتا وفكاهات ، وفي تصرفاتهم مرحا وبهجة وممتعة . . .



بعض أعضاء الرحلة يستريحون بالزعرانة

واستيقظ الأعضاء في الصباح الباكر وانطلقوا يتهادون على شاطئ  
البحر ويتجولون في رحاب الصحراء ، ولبثت مع فريق من الأعضاء على كثر  
من القنار نشغل أنفسنا بالحديث الهادئ والجدل الرفيق ، ومضت عنا  
الآنسة أمينة لطفي وسرعان ما عادت وأخذت في توزيع ألوان من الحاوي  
والبسكويت ، ، وعبنا حاول الأستاذ العبادي والدكتور عفيفي أن يثمنها  
بأن تقتصد فقد ينفع هذا يوم لا ينفع الندم . . . وللحقيقة والتاريخ وحدهما

نقول إن الأنسة بهية لطفى لم تكن حاضرة عند توزيع هذه الحلوى . . .  
وأرسل الأستاذ شفيق بك في طلب الأعضاء ليحتسوا الشاي الذي  
استعاره من موظفي الفنار ، ودخلنا غرفة الشاي فاستلقت نظرنا منظر  
الأنسة أمينة طه حسين وقد وقفت أمام مغسل في الحجرة وشمرت عن  
ساعدى الجد وراحت تغسل فناجين الشاي وأطباقها ، ثم ترغى الصابون  
وتعيد الغسل ثانية وثالثة وهى لا تكاد ترى أحداً منا لفرط العناية وشدة  
الانهماك، ونحن وقوف ننتظر؛



فنار الزعفرانة

فقد كان منظرها في هذه اللحظة  
يؤكد لنا بانها لن تأذن قط  
لأحد — كائناً من كان ، وبالغا  
ما بلغت مكانته — أن يساهم  
معه في أداء هذا العمل . . .  
كنت قد دخلت غرفة  
الشاي مع نفر من أعضاء  
الرحلة متأخرين ، فلاحظنا أن

في وسط الغرفة نضداً فوقه كمية لا بأس بها من الكعك ، وهو بغير شك ملك  
خاص لأحدى الأنسات — أظنها سامية — وإن كان وضعه على النضد على هذا  
النحو يوهم الرأى بأنه مشاع بين الجميع . . فأشار أحد الزملاء بأن نعتدى على هذا  
الكعك ولا نستفسر عن صاحبه حتى نفرغ من هذا الاعتداء ، فإذا عرفنا اسم  
صاحبه بعد ذلك قدمنا إليه الاعتذار عن تسرعنا في الاعتداء قبل التأكد من  
وضعه على هذا النحو ، ووافق البعض على هذا بشرط أن تترفق في العدوان ،  
واعترض البعض على الاقتراح وتعديله ، وهم البعض بتنفيذ الاقتراح فهددهم  
المعترضون باعلان الحقيقة ، وبهذا وحده سلم الكعك من عدوان المعتدين . . .  
وأظن أن الأستاذ عزت عبد الكريم كان أكثرنا ضيقاً لهذه النتيجة . . .

ولبثنا بعد هذا ننتظر مقدم العربتين اللتين تخلفتا بالطعام والخيام حتى وصلتا في منتصف الحادية عشرة من صباح الأحد — ٢٩ يناير — ثم مضينا إلى زيارة دير القديس انطونيوس قبيل الظهر ولقينا الشيء الكثير من حفاوة وسخاء رهبانه ، الذين جالوا بنا في أهم أنحائه . وقد كان من أعجب ما رأيناه في هذا الدير ، تلك العين التي تنبع في أحد جوانبه فتستل من الأرض الحجرية ماء نقياً ، يمكنهم من العيش في رحاب هذه الصحراء الرهيبة . ثم عدنا إلى الزعفرانة عقب الغروب . وفي صباح الاثنين ( ٣٠ يناير ) كان عيد الأضحى فانطلقت بنا السيارات إلى الغردقة ، ومررنا في الرابعة مساء بمدينة غريب — أو غارب كما يسميها أهلها — وأقنا بها نحو ساعة عرفنا منها أنها مدينة صغيرة حديثة العهد قد أدى إلى نشأتها كشف ينابيع جديدة للزيت ، وينبغي أن نشير مع الأسف إلى أن الشركات الأجنبية — والأجنبية وحدها — هي التي تنقب عن الزيت والسماد وما إليهما في هذه المناطق المصرية .

ولم نطل المقام فقد وطدنا العزم على مواصلة المسير مساء حتى تبلغ الغردقة ، ومضينا في سبيلنا لا يعوقنا ليل ولا تعرقل مسعانا وعورة الطريق ، ولكن العربات قد ضلت طريقهما وأخذت تتسابق في العرص في جوف الرمال وتنافس في التعمق في باطنها حتى أجهدنا إنقاذها إجهاداً عظيماً ، ولم نقو على إنقاذ العربتين الكبيرتين فخلفناهما وراءنا بما تحملان من خيام وطعام وشراب . وفي منتصف العاشرة من مساء يوم العيد كنا في قلب الصحراء ، نعاني البرد ولا نكاد نحس له لذا ، ونعرف أننا ضللتنا الطريق ولا نكاد نشعر بأن للتيه رهبة أو روعاً ، ونعلم أننا لم ندق منذ الظهر طعاماً ولا نكاد نحس بأن للجوع ألماً ؛ كان يملأنا المرح ويخمر بنا الرضا ولا يطوف بخواطرنا إلا الأمل الباسم ، ولا يتردد على ألسنتنا إلا الفكاهة الحلوة أو النكتة اللاذعة . وقد كان في عربة الدكتور نصحي مدياع — راديو — فالتفطنا حولها نصت

إلى أم كلثوم وهى ترسل إلينا أنغامها الحلوة على جناح الأثير، وسمعنا المنصتين إليها فى القاهرة يطلقون حناجرهم بالهتاف لها، وإعلان الإعجاب بها كلما انتهت من غناء فقرة من فقراتها؛ فلا حظ صديقنا « الزيات » أننا ننصت إليها فى وقار لا مبرر له، وأن من واجبنا نحن أيضاً أن نحسبها بالتهليل والضحج؛ ولسكن الآنسة أمينة فهمى لم ترقها هذه الملاحظة فقالت: وعلام نحسبها ..؟ إن الذين يحيونها الآن — فى مساء عيد الاضحى — قد أكلوا فى الظهر « كبدة » وفى المساء « لحمه »، وقد مكثهم هذا من التمتع بجمال صوتها وحسن أنغامها، وسيعودون إلى بيوتهم بعد الانصات إليها فينامون نوماً مريحاً هادئاً لذيذاً، فلماذا لا ترتفع ألسنتهم بتحيتها ..؟ أما نحن فلماذا نحسبها ..؟ جوع وبرد وضلال طريق ونوم متعب، والأغانى الجميلة لا تشبع الجائع ولا تدفىء البارد ولا تهدى الضال ولا تريح المتعب .. وذلك رغم ما كانت تبديه الآنسة من فرط الرضا بالرحلة والاغتياب بمفاجأتها.

وما كدنا ننقذ العربات التى غاصت فى الرمال حتى أقبل علينا من فضاء الصحراء اثنان من الأمريكان وتطوعا لمعاونتنا وبذلا من الجهد ما يستحق الثناء .... وواصلنا المسير طوال الليل — ونحن أيقاظ — ولم نبلغ محطة الغردقة إلا فى مستهل الرابعة صباحاً ... ومن الخير أن نقول إن صديقنا الأستاذ ابراهيم أمين قد قام فى هذه الليلة بمهمة نائب الرئيس — أو صبي الرئيس كما أطلقت عليه فرقة التفاريح — فأحسن القيام بها وأداها على أكمل وجه مستطاع، وقد كان — كمعادته — يجمع بين الظرف والنشاط وحسن التصرف — وأسفر الصبح فاذا نحن أيقاظ نعجب لما نحسه من نشاط ومرح واطمئنان، ولبثنا بغير طعام حتى وزع علينا الدكتور كامل منصور أحد أساتذة كلية العلوم شايًا وبلحًا.

ومن الخير أن نقول الآن إن هذا الروح الطيب الذى كان يشيع فى نفوس الأعضاء طوال الرحلة — ولا سيما إبان الأزمات —

مرّكّه، أولاً وآخرأ إلى رئيسها الأستاذ شفيق بك، إن لكلماته القليلة وتصرّفاتّه الحازمة أثرها في نفوس الأعضاء؛ إنه لا يشعر أحداً برياسته، ومع ذلك لا تجد أحداً في الرحلة إلا وهو شديد الشعور بهذه الرياسة في كل لحظة؛ إنك لا تراه طوال الرحلة إلا كما ترى الأعضاء الذين ينطوون على أنفسهم ولا يكادون يظهرون إلا لما، ومع ذلك فأنت عميق الإحساس بأنه مصدر كل حركة ومبعث كل نشاط طوال أيام الرحلة، إنه يبدو — في بعض الأحيان — وكأنه على غير اتصال بتيارات الرحلة واتجاهات أفرادها، ومع ذلك فهو أشد أعضاءها عرفاناً بها وسيطرة على أحداثها وتوجيهاً لتياراتها... إن شخصيته بما جمعت من ظرف ورقة وحزم وحكمة، لتخلع على الرحلة بهاء وبهجة، وتذيب في لمح البصر كل ما من شأنه أن يعكر الصفو أو يبعث الضيق أو يقيد من طلاقة النفس وحريتها...

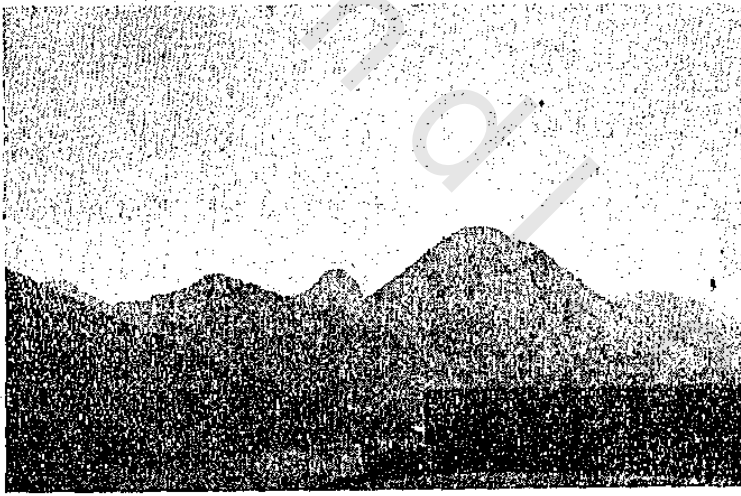
وقضينا سحابة النهار (الثلاثاء) في محطة الأحياء البحرية لـكلية العلوم بالگردقة، وهي تقع على مرفأ جميل ممتع؛ واتصلنا إبان النهار بأهل الغردقة نستطلع أنباءهم، فقبل لنا إن عيون الزيت قد كادت أن تنضب، ولهذا شدّ الكثير من أهلها رحالهم إلى مدينة غارب الحديثة، وذلك لا يكف الناس كثيراً، فانهم لا يعنون بإقامة البيوت الفخمة ولا يدفعون للأرض المقامة عليها ثمناً. ولقد فرح أهل البلد بوجودنا وتأهبوا لخدمتنا في سداجة بالغة، وسألنا أحد الباعة هناك عندما عرف أننا من القاهرة عن خاله «الحاج علي» ورد عليه أهدنا قائلاً إنه بخير ويهدي إليك السلام... وهم يستوردون ماء الشرب والخضروات وسائر ما يحتاجون من السويس أو قنا في المراكب والسيارات؛ ولهذا يكاد طعامهم وشرابهم أن يكون على قدر حاجتهم، حتى لقد طلب إلينا مدير المحطة أن تنبئه بما نحتاج إليه من زاد قبل مواعده بيوم على الأقل...

وحضر مجلس النار في هذه الليلة الدكتور مشرفه بك عميد كلية العلوم

والدكتور كامل منصور أحد أساتذتها ، وبعد أن بدأت فرقة التفاريح أناشيدها بنحو دقيقتين أقدم عبد الحميد يونس ، فقال الدكتور مشرفه بك على جاره وهمس في أذنه قائلاً : إن هذا الشاب يستطيع أن يحدثك بالانجليزية بضع دقائق حديثاً متصلاً كله Nonsense ؛ قلت بل يستطيع أن يحدثك بالعربية بضع دقائق حديثاً طويلاً متصلاً جذاباً ممتعاً كأحسن ما يكون الحديث الممتع الجذاب ، ولكنه تافه فارغ كأعذب ما يكون الحديث التافه الفارغ . وقد كان فضلاً عن نشاطه الملاحظ في إقامة الخيام وسائر ما تتطلبه المعسكرات ، روح فرقة التفاريح ومبعث الحيوية في أعضائها ، وهو صورة ناطقة للفرقة كلها ؛ فأنك حين تنصت إليهم يتحدثون في أحد الموضوعات تحس — إذا كنت حديث العهد بهم — أنهم مقدمون على حديث جدي بعناية تحملك على الانصات إلى حديثهم ، وذلك بغريك بمنافستهم وإشوقك إلى معرفة آرائهم . ولكنك لا تلبث حتى تعرف أن حديثهم ينتهي حيث بدأ ويبدأ حيث ينتهي ويدور في حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر . . . اذكر أني كنت ذات صباح في خيمة هذه الفرقة ، ووجهه جاك سؤالاً من أسئلته العميقة ، فأخذوا جميعاً يتعاونون على إجابته ، فقال متولى نور : آه قلت لي ليه — تعجبني أسئلتك — ثم راح وبقية زملائه يدورون حول السؤال ويجيبون عليه إجابات يخيل إليك أنها على شيء من العمق ؛ ولبثت الحال على هذا حتى هممت بالانصراف وعاشور يقول لجاك : برده نرجع ونقول ليه . . ؟ فأوصيتهم بأن ينبشوني عن الرأي الذي ينتظر أن يستقروا عليه فيما بعد ، ثم تركتهم وانصرفت معجباً بمهارتهم الفذة في هذا الصدد . . .

وإذا ذكرت البحر والعمدة طافت بخاطري صورة الأستاذ العبادي وهو يلاطم أمواج البحر بمنكبيه العريضتين ، ويشيع الدهشة في نفوس الأعضاء الذين أعجبهم منظر هذا المزيج من الوقار والحكمة والرزانة والهدوء وهو في البحر يغوص حيناً ويطفو أحياناً ، ويسبح على ظهره طوراً

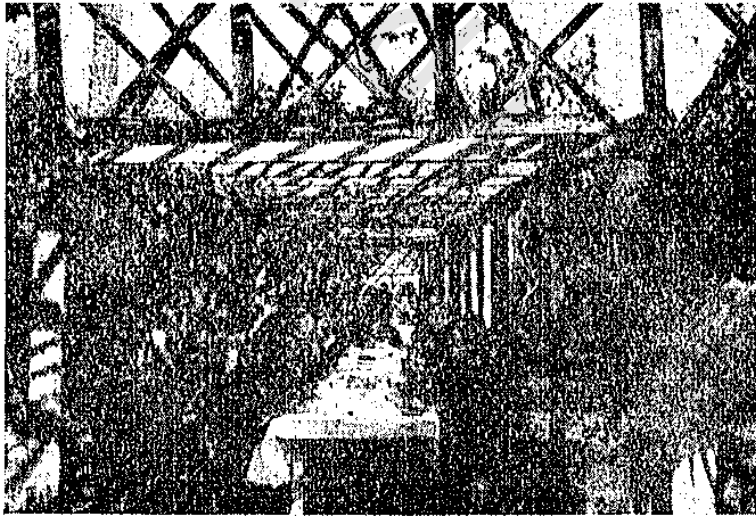
وعلى بطنه أطوارا ، وإلى جانبه الدكتور عفيفى الذى ما شك أحد حين  
 رآه فى ثوب البحر بحسبه الرياضى السمهرى أنه سباح ماهر ممتاز ، فلما هم  
 بالقاء نفسه فى أحضان الموج رأيناه يجلس على حافة الشاطئ ، ويرسل رجليه  
 أولا ثم ينزل إلى البحر فى هدوء فلسفى واضح ، ثم يقف على كئيب من  
 الشاطئ. متأملا « منطق » هذا الكون ، ثم يرش بالماء جسمه بيده اليمنى حتى  
 إذا أدركها النصب استبدل بها يده اليسرى ، وهكذا حتى يترك البحر ويعود  
 إلى ارتداء ملابسه ... وعلى كئيب منه ترى الدكتور نصحي منصرفا إلى  
 معا كسة أعضاء الرحلة وهم جلوس على لسان تمتد على سطح الماء إلى مسافة  
 بعيدة ، يغافلهم ثم يرشهم بالماء ويختفى تحت اللسان ويتلقى منهم النكات  
 ويردها إليهم فى سرعة ملحوظة ، وعلى مقربة منه ترى الدكتور حسن عثمان  
 يوههم الحاضرين بأنه سباح ممتاز لا يدانيه أحد حتى « كنج » خير أعضاء  
 الرحلة قدرة على السباحة ١.



بعض المرتفعات فى المنطقة قرب جبل الدخان فى الطريق من الغردقة إلى قنا  
 وفى صباح الأربعاء مضت بنا السيارات إلى سفاجة ، ثم عدنا إلى الغردقة  
 فى الخامسة مساء بعد أن شهدنا عمليات استخراج السماد ، ولبثنا بها إلى صباح  
 الخميس ، ثم اخترقت السيارات بنا الصحراء الشرقية واسترحنا فى الطريق

أكثر من مرة ، وشهدنا المرتفعات حولنا ثم بلغنا قنا في الثانية مساء ، وزرنا معبد دندرة وقضينا الليلة في المدرسة الثانوية التي احتفى بنا أهلها وأحسنوا استقبالنا .

وقنا من قنا صباح الجمعة فبلغنا البليينا في الواحدة مساء ، وزرنا معبد سیتی الأول في أييدوس ؛ ثم شددنا رحالنا إلى جرجا وقضينا ليلة السبت في مدرسة رزق الله مشرقى ، وقد لقينا من حفاوة أهلها ما أطلق ألسنتنا بمدحهم والثناء علىكرمهم . وبارحنا جرجا في صباح السبت ومضينا إلى أسيوط ومنها إلى ملوى وواصلنا سيرنا . إلى تونة الجبل فبلغناها في منتصف الليل ، وزرنا حفائر كلية الآداب بها ثم بارحناها إلى سمالوط حيث أعد لنا زميلنا زكى الشريعى — أحد أعضاء الرحلة — سماطا فاخرا في منزله كاد بألوان الطعام التي جمعها يغرى أعضاء الرحلة على البقاء ضيوفا عنده إلى أجل غير مسمى . ثم يمضنا مصر بعد تناول الطعام فبلغناها في الثانية عشرة من مساء يوم الأحد ( ٥ فبراير ) .



على مائدة زكى الشريعى في سمالوط

وكانت « فرقة التفاريح » على نشاط وافر طوال هذه الليالي ، وليس أدل على نشاطها من أن تعقد مجلس النار في تونة الجبل بعد منتصف الليل وتوالى



أغانها حتى مطلع الفجر 1٠٠ بل ليس أدل على نشاطها من انقسامها إلى ثلاث فرق تتعاون فيما بينها على ملأ الليل بالأغاني الحلوة والأناشيد الجميلة « والقفشات » الموفقة ؛ كان يتولى الأولى : يونس وراجي وعاشور ومتولى والآنسات اللاتي سيرد ذكرهن بعد قليل ؛ ويتولى الثانية حبيب ومختار ولويس وأنور ؛ أما الفرقة الثالثة فهي فرقة الآنسات التي نعترف إنصافاً لها بأنها ملأت الرحلة حياة وبهجة ، وقد كانت تقوم بالرد على الفرقتين الأوليين رداً رقيقاً وديعاً ينساب في نفس الاتجاه الذي سلكته الفرقتان الأخريان ، وكان يتولى هذه الفرقة الآنسات أمينة فهمى وبهية لطفى وسامية ورفيعة وفلور وعلية . . . وقد دربت الآنسة رفيعة وكنج فئة من أعضاء فرقة التفاريح على إنشاد كثير من الأناشيد الشامية الجميلة . . .

ومن الخير أن نشير إلى أن فرقة التفاريح قد اتخذت من زميلنا عباس راجي مادة لكثير من أناشيدها وفكاهاتها ولكنه أثبت بحزم أنه مثل طيب للشباب المهذب الظريف المرح إلى أقصى الحدود ، فقد كان يتلقى نكاتهم باسماء ثم يتخذها أداة للسخرية منهم وإضحالك الحاضرين عليهم ، وقد كان موقفاً في هذا توفيقاً بعيد المدى . . .

وبينما كانت هذه الفرق تفيض طوال الرحلة نشاطاً وحركة وحياة ، كان بين الأعضاء فئة أخرى على وقار عظيم يكاد يوهم الرائي بأن أهله أموات ؛ أولئك هم « شلة الوقار » كما أطلقت عليهم « فرقة التفاريح » . وفي الحق إن أصدقاءنا من الطلبة مخطئون في توجيه اللوم إلينا على عزائتنا وعدم مساهمتنا معهم في المرح والتهريج ، فما كان هذا كبيراً منا ولا غروراً . ولكنه عجز عن مجاراتكم في لهوكم والانتظام معكم في تباركم ، وقد جازف أحدنا — وهو خير من فينا — وانضم إليكم وغنى معكم وأمدكم بأناشيد جميلة من تأليفه فقلتم عنه في نشيد أهل الوقار « صوته تخين ومين يتحمل ٩٠ » فتصوروا أيها الأصدقاء أننا جميعاً قد انضممنا إليكم وأطلقنا حناجرنا بالغناء فيكم 11٠

وفي الحق أيضاً أنه لو طالت أيام الرحلة قليلا لزايلنا الوقار ولازمننا  
التهريج.. ولا عجب في هذا فقد كان الكثير من أهل الوقار في اليومين الأخيرين  
يغنى لنفسه بصوت مسموع ، ودون مناسبة تبرر غناء ، بعض الفقرات من  
الأغاني والأناشيد التي كانت ترددها فرقة التفاريح ، وإن كان من الانصاف  
أن نقول إن هذه الفقرات كانت تغنى في كل مرة وعلى كل لسان بتلحين  
جديد...! وليس هذا بأعجب من أن تسمع أن الأستاذ العبادي بك ، وهو  
رمز وقار التاريخ الاسلامي كله — قد استيقظ في صباح آخر يوم من أيام  
الرحلة وهو يقول : تَلَبَّسْتُ ثِيَابًا تَلَبَّسْتُ .. وهي الكلمة التي كانت تنطلق بها حناجر  
المهرجين إذا شاموا « تَبَّوِيح » المنشدين والمغنين !!

ومن الانصاف أن أعلن الآن بأن « شلة الوقار » كانت في كثير من  
الاحيان يصيها « التَّجَلَّى » فتتمرد على وقارها وتشور على تقاليدها ، وتعلن  
براعتها النادرة في المرح ومهارتها الملحوظة في التهريج — على ألا يراها أو  
يسمعها إلا أهلها — ولها في ذلك مواقف مشهورة لا يمتنع عن ذكرها وتفصيل  
أخبارها غير الوقار..! كانت مظاهر التجلي عند أهل الوقار في خفاء عن سائر  
الأعضاء ، فلم يكن أعضاء الرحلة يرون إلا أصدقاءنا عزت وعثمان والحقة...  
وقوفا عند سفح جبل أو على كثر من سياراتهم مكتفين بتسريح الطرف  
في جمال الطبيعة وإعلان الإعجاب بنشاط « مراد غربال » وهو يتسلق  
الجبال ويتجول في رحاب الصحراء في مرح ملحوظ ، ووراء النويهي يجر  
رجليه ويحاول متابعتها أنى ذهب . ١١

ولا ينبغي أن أفرغ الآن من الحديث عن مجالس النار قبل أن أسجل  
ظاهرة طريفة كانت تلوح في كل مساء . تلك الظاهرة التي كانت ملحوظة عند  
الأعضاء جميعا هي الأستاذ شفيق بك في مجالس النار بملابسه العربية القحة  
يتوج رأسه بعقال فاخر ويحيط جسمه بعباءة من الصوف الممتاز ، ويبدو  
للرائي في رحاب هذه الصحراء التي كنا نرتادها عربيا ثريا قحاً كأحسن

ما يكون العربى الثرى الصميم ، يفتش الأرض فى مجالس النار بعباءته  
الفضفاضة وعقاله المحكم ويساهم مع الأعضاء فى إنشاد النشيد الوطنى وترديد  
الأغاني الحماسية التى تروقه فلا ندرى أنه الأستاذ شفيق بك إلا حين نلاحظ  
« البببة » وقد احتلت — على عادتها — مكانها من فمه ، واستوى على رجليه  
نجله « مراد » يشيع المرح الحلو ليلاً كما كان يشيعه نهراً ...

ونحن لانستطيع أن ننسى ما لقيناه من الأستاذ الدمرداش محمد بك مراقب  
الامتحانات المساعد بوزارة المعارف، الذى صحبنا فى أكثر مراحل الرحلة،  
وذلل لنا كثيراً من صعابها ، بخبرته ودرايته بشئون الصحراء ؛ فضلاً عن أدبه  
الجم ، وخلقه الكريم . وكان أحياناً « يتوه » عنا أو « تتوه » عنه ، ثم مانلبث  
أن نلتقى .

ومن الخير أن أشير الآن إلى أن الأخ متولى نور قد أخذ للرحلة فيلاً  
سينمائياً بديعاً سجل فيه الكثير من مناظرها ومواقف أعضائها والأحداث  
التي مرت بهم طوال الطريق .

حسبى الآن هذا فقد طال الكلام ، ولا بأس من الإشارة إلى خير  
المقترحات التى قد تمسكنا من تلافى بعض المتاعب فى مستقبلنا إذا قمنا برحلة  
كمذه الرحلة :

١ — يشتري مع الطعام كمية من أطباق الورق التى تباع فيها الحلوى  
لتستعمل مرة واحدة ثم ترمى بعد ذلك ، وبهذا تتلافى العناء فى غسل الأطباق  
وتتقى قذارتها — أو يستغنى عن كل ما يوضع فى أطباق ويهين الغذاء على  
هيئة ساندوتش .

٢ — بعد الخدم والطهارة طعام الصباح والظهر على هيئة ساندوتش —  
يوزع على العربات كل صباح منعاً لضياع الوقت وضماناً لنظافة الطعام  
وسهولة توزيعه .

٣ — تزود العربات بالأدوات التي تساعد على رفعها متى غاصت في الرمال .

٤ — يوضع الطعام والخيام وسائر أدوات الرحلة في « لوريات » صغيرة الحجم خفيفة الحمل لتتمكن من متابعة المسير ، وكثرة عددها لا يضيرنا كثيراً ولا قليلاً ..

٥ — أن يكون الأستاذ العميد — شفيق بك غربال — رئيس كل رحلة شاقة متعبة تعزز السكينة القيام بها ...

...

هذه رحلتنا — أرجو ألا يكون الحرص على الأيجاز في وصفها ، والعجز عن بلوغ الغاية في تصوير أحداثها ، قد أخرس الناطق في ألوانها وظلالها ، أو استلّ الحياة التي كانت تتمشى في جسمها ، وخنق الروح الذي كان ينساب في كيائها ....

ت . الطويل